نظرية النبوة عند الفارابى[1]

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

يعتمد كل دين سماوى أولاً وبالذات على الوحى والالهام ، فمنهما صدر ، وبما لهما من إعجاز فاز ، وعلى تعاليمهما تأسست قواعده وأركانه . وما النبي إلا بشر منح القدرة على الاتصال بالله والتعبير عن إرادته ؛ وهذا هو كل ما له من امتياز ، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، ولا يروى خبرا إلا وهو تنزيل من حكيم حميد ، ولا يقضى بقضاء إلا وهو ينفذ إرادة الله . والاسلام ككل الديانات السامية يستمد قوته من السماء ، فعقائده وقوانينه مأخوذة من الكتاب والسنة اللذين هما وحى مباشر أو غير مباشر : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » ، فمن ينكر الوحى يرفض الاسلام فى جملته ، أو يهاجمه على الأقل فى أساسه ويهدم دعائمه الأولى والرئيسية . وتلك جريمة شنعاء قل أن يجرؤ عليها أشخاص عاشوا فوق أرض الاسلام وتحت سمائه . وليس شىء ألزم لفيلسوف مسلم من أن يحتفظ فى مذهبه بمكان للنبوة والوحى إذا شاء أن تقبل فلسفته وتقابل بالتسامح من جانب إخوانه المسلمين . وقد كان فلاسفة الاسلام حريصين كل الحرص على أن يوفقوا بين الفلسفة والدين ، بين العقل والنقل ، بين لغة الأرض ولغة السماء ، لهذا لم يفتهم أن يشرحوا لغة السماء ويوضحوا كيفية وصولها إلى سكان العالم الأرضى ويبنوا الدين فى اختصار على أساس عقلى ، فكونوا نظرية النبوة التى هى أهم محاولة قاموا بها للتوفيق بين الفلسفة والدين . والفارابى هو أول من ذهب إلى هذه النظرية وفصل القول فيها بحيث لم يدع فيها زيادة لخلفائه فلاسفة الاسلام الآخرين . وهذه النظرية هى أسمى جزء فى مذهبه الفلسفى ، تقوم على دعائم من علم النفس وما وراء الطبيعة ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالسياسة والأخلاق ، ذلك لأن الفارابى يفسر النبوة تفسيرا سيكلوجيا نفسيا ، ويعدها وسيلة من وسائل الاتصال بين عالم الأرض وعالم السماء ، ويرى فوق هذا أن النبى لازم لحياة المدينة الفاضلة من الناحية السياسية والأخلاقية ، فمنزلته لا ترجع إلى سموه الشخصى فحسب ، بل لما له من أثر فى الوسط الاجتماعى

قد يكون الفارابى أكثر فلاسفة الاسلام اشتغالاً بالمسائل الاجتماعية ، فهو يتعرض لها فى كثير من مؤلفاته ، ويعنى بها عناية تدل على الرغبة والاهتمام ، وبين رسائله القليلة التى وصلت الينا رسالتان رئيسيتان موقوفتان على السياسة والاجتماع ، وهما : السياسة المدنية ، وآراء أهل المدينة الفاضلة . وله شرح مختصر على نواميس أفلاطون لا يزال مخطوطاً حتى اليوم ومحتفظاً به فى مكتبة ليدن ، وقد رأيناه هذا الصيف فيما رأينا من مخطوطات عربية أخرى بالمكاتب الأوربية ؛ وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة يكفى وحده فى أن نعد الفارابى بين من فكروا تفكيرا منظما فى النظريات السياسية ، وعله أشهر كتبه وألصقها به ؛ وقد عرف المتأخرون له هذه المنزلة ، فلقبوا مؤلفه به وسموه « صاحب المدينة الفاضلة » ، وهذا الكتاب يحاكى جمهورية أفلاطون إلى حد بعيد ، ويحوى كثيراً من الآراء الأفلاطونية . والواقع أن شيخ الأكاديمية انفرد تقريباً ، بين مفكرى الأغريق ، بالتأثير فى دراسة العرب الاجتماعية ، وبرز فى هذا المضمار على أرسطو الذى ساد الفلسفة الاسلامية فى نواحيها الأخرى

فعلى طريقة أفلاطون يرى الفارابى أن المدينة كل مرتبط الأجزاء ومتضامنها ؛ هى كالبدن إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . فالألم الذى يحس به أحد أفراد الجمعية لا بد أن يمتد إلى الآخرين ، والسرور الفردى لا يصح أن يعرف فى جمعية صالحة . فلا يألم شخص وحده ، ولا يُسر وحده ، بل يجب أن تسرى فى الجميع روح واحدة تحس بأحساس مشترك . وإذا كانت أعضاء الجسم ذات وظائف متميزة فواجب أن يكون لكل فرد من أفراد المجتمع عمل خاص ، ولن تتم للجمعية سعادتها إلا إذا قسم العمل بين أفرادها تقسيما متناسباً

(١) ألقى هذا الموضوع مختصراً فى محاضرة من محاضرات الجامعة الأمريكية العامة فى ٣ أبريل سنة ١٩٣٦

مع كفاياتهم ومشوباً بروح التضامن والتعاون[١] ، وبديهى أن الأعمال الاجتماعيـة متفاوتة بتفاوت غاياتها ؛ وأسماها وأشرفها ما اتصل برئيس الجمعية ومهمته ، لأنه من المدينة كالقلب من الجسم ، فهو مصـدر الحياة وأصل التناسق والنظام ؛ وليست وظيفته بسياسية فقط ، بل هى أخلاقيـة كذلك ؛ فانه مثال يحتذى وسعادة الأفراد تتلخص فى التشبه به[٢]

يبنى الفارابى كل آماله على رئيس المدينة ويعلق عليـه كل الأهمية ، كما علق شيخ أثينا أهمية كبيرة على رئيس الجمهورية ، ويشترط فيه شروطاً كثيرة تشبه تمام الشبه الشروط التى قال بها أفلاطون من قبل ، بل هى مأخوذة عنها نصاً . ويعقد لها فى كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) فصلاً مستقلاً عنوانه : « فى خصال رئيس المدينة الفاضلة » ، وفى هذا الفصل يقرر أنه لا بد أن يكون رئيس المدينـة سليم البنية قوى الأعضاء تامها ، جيد الفهم والتصور ، قوى الذاكرة ، كبير الفطنة ، سريع البديهة ، حسـن العبارة ، محباً للعلم والاستفادة ، متحلياً بالصدق والأمانة ، نصيراً للعـدالة ، عظيم الارادة ، ماضى العزيمة ، قانعاً متجنباً للملذات الجسمية[٣] . شرائط صـعبة التحقيق ونادرة الوجود مجتمعة فى شخص واحد كما يلاحظ الفارابى نفسه ، ومع هذا لايتردد فى أن يزيدها تعقيداً ؛ فيضيف إليها شرطاً آخر أملاه عليه مذهبه العام واستعداده الصوفى ، أو بعبارة أخرى يضيف إليها الشرط الذى يبعده عن أفلاطون بقـدر مايقربه من التعاليم الاسلامية ، وذلك الشرط هو أنه لا بد لرئيس المدينـة من أن يسمو إلى درجة العقل الفعال الذى يستمد منه الوحى والالهام ، والعقل الفعال ، كما نعلم ، أحـد العقول العشرة المتصرفة فى الكون ، ونقطة الاتصال بين العبد وربه ، ومصـدر الشرائع والقوانين الضرورية للحياة الخلقية والاجتماعية[٤] ، وعلنا نلاحظ من هذا أن خيال الفارابى — ولو فى هذه النقطة على الأقل — أخصب من خيال أفلاطون . ففى حين أن مؤلف الجمهورية يريد أن يرغم الفيلسوف على النزول من سماء التأملات إلى عالم الشؤون السياسية ، يطلب الفارابى من رئيس مدينته أن يندمج فى العالم الروحى وأن يحيا بروحـه أكثر من حياته بجسمه ، ويشترط فيه أن يكون قادراً باستمرار على الاتصال بالعقل الفعال . فالحاكم الفيلسوف الذى قال به أفلاطون يتحول إلى حكيم واصل عنـد الفارابى . يقول دى بور فى حق : « يُبرز الفارابى رئيسه فى كل الصفات الانسانية والفلسفية ؛ فهو أفلاطون فى ثوب محمد النبوى[١] » . وواجب على رئيس كهذا قد حظى بالسعادة الحقة ونعم بالاتصال بالكائنات الروحية أن يجتذب مرءوسيه نحوه ، ويقوم على تهذيب أرواحهم أولا وبالذات ، ويصعد بهم إلى مستوى النور والاشراق . فنحن إذن أمام مدينة سكانها قديسون ورئيسها نبى ، وهى مدينة لا وجود لها إلا فى مخيلة الفارابى .

بيد أن الفيلسوف العربى يأبى إلا أن يصوّر لنا من هـذا الخيال حقيقة ويحملنا على التسليم بامكان المدينـة الفاضلة التى ينشدها ، ذلك لأن الاتصال بالعقل الفعال ، وإن يكن نادر الوجود وخاصاً بعظماء الرجال ، ميسور من طريقين : طريق العقل وطريق الخيالة ، أو طريق التأمل وطريق الالهام ؛ فبالنظر والتأمل يستطيع الانسان أن يصعد إلى منزلة العقول العشرة ، وبالدراسة والبحث ترقى نفسه إلى درجة العقـل المستفاد حيث تتقبل الأنوار الالهية[٢] ، وليست النفوس كلها قادرة طبعاً على هذا الاتصال ، وإنما تسمو إليه الأرواح القدسية التى تستطيع أن تخترق حجب الغيب وتدرك عالم النور . يقول الفارابى : « الروح القدسـية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق ؛ ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن ؛ وقد يتعـدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم وما فيه ؛ وتقبل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس »[٣] . فبفضـل الدراسات النظرية الطويلة والتأملات العقلية الكثيرة يستطيع الحكيم الاتصال بالعقل الفعال ، وهذا الحكيم الواصل هو الذى يسمح الفارابى بأن يكل إليه مقاليـد

(١) الفارابى ، آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٥٤ — ٥٥ وانظر أيضاً :
Piston, Réxuplique, 370 a b 373 c.

(٢) الفارابى ، آراء أهل المدينـة الفاضلة ، ص ٥٥ — ٥٦ = تحصيل السعادة ، ١٦ ، ٤٣

(٣) الفارابى ، المدينة الفاضلة ، ٥٩ — ٦٠ = تحصيل السعادة ، ص ٤٤ ، ٤٥ وانظر أيضاً : Platon, Republique, 490 c.

(٤) الفارابى ، المدينة الفاضلة ، ٥٧ — ٥٨

I. de Boer, Geschichte der Philosophie im Islam, p. 112. (١)

(٢) الفارابى ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص٤٦ = تعليقات ص ١٤

(٣) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ٧٥

أمور مدينته ، وبهذا يحل « صاحب المدينة الفاضلة » ، على طريقته طبعاً مشكلة الرئيس السياسي والاجتماعي ، وهو حل صوفي كما ترى ؛ وليس غريباً أن يصدر عن فيلسوف يقول بنظرية السعادة والاتصال . فآراء الفارابي السياسية ، وإن اعتمدت على دعائم أفلاطونية مشوبة بنزعة صوفية واضحة

على أن الاتصال بالعقل الفعال ممكن أيضاً عن طريق الخيالة ، وهذه هي حال الأنبياء ؛ فكل إلهاماتهم وما ينقلون إلينا من وحي منزل أثر من آثار الخيالة ونتيجة من نتائجها ، وإذا ما رجعنا إلى علم النفس عند الفارابي وجدنا أن المخيلة تلعب فيه دوراً هاماً وتنفذ إلى نواحي الظواهر النفسية المختلفة . فهي منبتة الصلة بالميول والعواطف وذات دخل في الأعمال العقلية والحركات الارادية . تمد القوى النزوعية بما يستثيرها ويوجهها نحو غرض ما ؛ وتغذي الرغبة والشوق بما يؤججهما ويدفعهما إلى السير في الطريق حتى النهاية . هذا إلى أنها تحتفظ بالآثار الحسية وصور العالم الخارجي المنقولة إلى الذهن عن طريق الحواس ، وقد لا يقف عملها عند ادخار الصور الذهنية والاحتفاظ بها ، بل تخلق منها قدراً مبتكراً لا تحاكي فيه الأشياء الحسية ، وبهذا يشير الفارابي إلى الخيالة المبدعة (imagination créatrice) التي تنبه اليها علماء النفس المحدثون بجانب الخيالة الحافظة (imagination conservatrice) ، ومن الصور الجديدة التي تخترعها الخيالة تنتج الأحلام والرؤى . ويعنينا هنا قبل كل شيء أن نبين أثر الخيالة في الأحلام وتكوينها . فاننا إن فسرنا الأحلام تفسيراً علمياً استطعنا أن نفسر النبوة وآثارها . ذلك لأن الالهامات النبوية إما أن تتم في حال النوم أو في حال اليقظة ؛ وبعبارة أخرى إما أن تبدو على صورة الرؤيا الصادقة أو الوحي . والفرق بين هذين الطريقين نسبي ، والاختلاف بينهما في الرتبة لا في الحقيقة . وما الرؤيا الصادقة إلا شعبة من شعب النبوة تمت إلى الوحي بصلة وتتحد معه في الغاية وإن اختلفت عنه في الوسيلة . فاذا فسرنا أحدهما أمكن تفسير الآخر . وقد عقد الفارابي في كتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة فصلين متتاليين « في سبب المنامات » و« في الوحي ورؤية الملك » ؛ وفي هذا ما يبين الصلة بين هذين المبحثين[1]

فهو يبدأ أولاً بالأحلام فيوضحها توضيحاً يقرب كثيراً من بعض الآراء العلمية الحديثة ، ويرى أن المخيلة متى تخلصت من أعمال اليقظة تفرغت أثناء النوم لبعض الظواهر النفسية ، فتخلق صوراً جديدة أو تجمع صوراً ذهنية قديمة على أشكال مختلفة محاكية ومتأثرة في ذلك ببعض الاحساسات والمشاعر الجسمية أو العواطف النفسية والمدركات العقلية ، فهي قوة مخترعة قادرة على الخلق والايجاد والتصوير والتشكيل ، ولها أيضاً قدرة عظيمة على المحاكاة والتقليد ، وفيها استعداد كبير للانفعال والتأثر[1] فأحوال النائم العضوية والنفسية واحساساته ذات أثر واضح في مخيلته ، وبالتالي في تكوين أحلامه ، وما اختلفت الأحلام فيما بينها إلا لاختلاف العوامل المؤثرة فيها ، فتحلم بالماء أو السباحة مثلاً في لحظة يكون مزاجنا فيها رطبا ، وكثيراً ما مثلت الأحلام تحقيق رغبة أو الفرار من فكرة بغيضة ؛ فقد يتحرك الانسان أثناء نومه تلبية لنداء عاطفة خاصة ، أو يجاوز مرقده ويضرب شخصاً لا يعرفه أو يجري وراءه[2] ، وعلى الجملة الميول الكامنة والاحساسات السابقة أو المصاحبة لحلم ما ذات دخل عظيم في تكوينه وتشكيله . ولسنا في حاجة لأن نشير إلى أن هذه الملاحظات على بساطتها تشبه التجارب العلمية التي قام بها فرويد وهرفي ومورى من علماء النفس المحدثين الذين اشتغلوا بالأحلام وتحليلها . وقد أبان فرويد في جلاء أثر الميول الكامنة في تشكيل الرؤى والأحلام ، وخاصة لدى الكهول والشبان ؛ واستطاع هرفي ومورى أن يبرهنا على أن الحلم غالباً ما يكون امتداداً لاحساس سابق أو نتيجة لاحساس مقارن ، فقد يحلم الانسان بحريق في حجرته في الوقت الذي يقع فيه بصيص من الضوء على حدقته أثناء نومه ، أو بأنه يُضرَب على أثر ألم في ظهره . وقد حدث مرة أن رأى شخص أن داره تنهار به في الوقت الذي انكسرت فيه إحدى قوائم سريره . ولقد وصل الأمر بهرفي أن ظن — بناء على ما سبق — أنه يمكن أن يتصرف الانسان في أحلامه ويشكلها كما يشاء ، فمتى ربط صلة بين بعض الاحساسات وذكريات معينة استطاع في نومه استعادة هذه الذكريات بإثارة الاحساسات المتصلة بها . وقديماً حاول

(١) الفارابي ؛ آراء أهل المدينة الفاضلة ؛ ص ٤٧ — ٥٣

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٨ — ٤٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٩ — ٥٠

الأغريق أن يحتفظوا بأحلامهم أو يثيروها بواسطة بعض الطقوس الدينية

وإذا كان فى مقدور الخيالة أن تحدث كل هذه الصور فهى تستطيع أن تشكلها بشكل العالم الروحانى ، فيرى النائم السموات ومن فيها ، ويشعر بما فيها من لذة وبهجة [1] . وفوق هذا فقد تصعد المخيلة إلى هذا العالم وتتصل بالعقل الفعال الذى تتقبل منه الأحكام المتعلقة بالأعمال الجزئية والحوادث الفردية ، وبذا يكون التنبؤ ؛ وهذا الاتصال يحدث ليلاً ونهاراً ، وبه تفسر النبوة ، فهو مصدر الرؤيا الصادقة والوحى . يقول الفارابى : « إن القوة المتخيلة إذا كانت فى انسان ما قوية كاملة جداً ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها ، ولا يستخدمها للقوة الناطقة ، بل كان فيها مع اشتغالها بهذين فضل كثير تفعل به أيضاً أفعالها التى تخصها ، وكانت حالها عند اشتغالها بهذين فى وقت اليقظة مثل حالها عند تخلها منها فى وقت النوم .... اتصلت بالعقل الفعال وانعكست عليها منه صور فى نهاية الجمال والكمال ، وقال الذى يرى ذلك إن لله عظمة جليلة عجيبة ، ورأى أشياء عجيبة لا يمكن وجود واحد منها فى سائر الموجودات أصلاً ، ولا يمتنع إذا بلغت قوة الانسان المتخيلة نهاية الكمال أن يقبل فى يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة أو محاكياتها من المحسوسات ، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها ، فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الالهية . وهذا هو أكمل المراتب التى تنتهى اليها القوة المتخيلة والتى يبلغها الانسان بهذه القوة [2] فميزة النبى الأولى فى رأى الفارابى أن تكون له خيالة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال أثناء اليقظة وفى حال النوم ، وبهذه الخيالة يصل إلى ما يصل اليه من إدراكات وحقائق تظهر على صورة الوحى أو الرؤيا الصادقة ، وليس الوحى شيئاً آخر سوى فيض من الله عن طريق العقل الفعال ، وهناك أشخاص قوية الخيالة ، ولكنهم دون الأنبياء فلا يتصلون بالعقل الفعال إلا فى حال النوم ، وقد يعز عليهم أن يعبروا عما وقفوا عليه ، أما العامة والدهماء فخيلتهم ضعيفة هزيلة لا تسمو إلى درجة الاتصال هذه لا فى الليل ولا فى النهار . يقول الفارابى : « ودون الأنبياء من يرى بعض الصور الشريفة فى يقظته وبعضها فى نومه ، ومن يتخيل فى نفسه هذه الأشياء كلها ولكن لا يراها ببصره ، ودون هذا من يرى جميع هذه فى نومه فقط ؛ وهؤلاء تكون أقاويلهم التى يعبرون بها أقاويل محاكية ورموزاً وألغازاً وإبدالات وتشبيهات ، ثم يتفاوت هؤلاء تفاوتاً كثيراً [1] » . وهنا يشير الفارابى إلى جماعة الأولياء والواصلين الذين يتفقون مع الأنبياء فى بعض النواحى ويختلفون عنهم فى نواحى أخرى

هذه هى نظرية النبوة التى انتهى إليها الفارابى بعد أبحاثه الاجتماعية والنفسية . فالنبى والحكيم فى رأيه هما الشخصان الصالحان لرياسة المدينة الفاضلة ؛ وكلاهما يحظى فى الواقع بالاتصال بالعقل الفعال الذى هو مصدر الشرائع والقوانين الضرورية لنظام الجمعية ، وكل ما بينهما من فارق أن الأول يحظى بهذا الاتصال عن طريق الخيالة والثانى عن طريق البحث والنظر . وسندع الحكيم وطريق اتصاله جانباً فقد تعرضنا له من قبل على صفحات الرسالة حين تكلمنا عن نظرية السعادة [2] ، وسنوجه عنايتنا فيما يلى إلى بيان أصول نظرية النبوة وأثرها فيمن جاء بعد الفارابى من فلاسفة ومفكرين

(يتبع) ابراهيم بيومى مدكور

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥١ — ٥٢

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٢

(٢) الرسالة ، العدد ١٥٧ ، ١٦٨ — ١٧١

مكتبة العرب

من أشهر المكاتب المصرية وأوسعها نطاقاً ، حاوية كل ما يحتاج إليه العالم والمتعلم والأديب والشاعر من الكتب الأدبية والتاريخية وخلافها من سائر الفنون من مخطوط ومطبوع ؛ كما أن المكتبة مستعدة لشراء جميع الكتب بأثمان جيدة . وللمكتبة قائمة مطولة ترسلها مجاناً . وجميع المخابرات والرسائل باسم صاحبها الشيخ يوسف البستانى بشارع الفجالة نمرة ٤٧ بمصر